ان الدعوة الى تسخيف فكرة المؤتمر الراهن ـ وفي ظل الواقع الحالي نفسه ـ لن تنتج، في تقديرنا، تحريراً كاملاً وناجزاً لفلسطين (وهو على كل حال ما لا يدعو اليه الكاتب اطلاقاً)، بل سوف يدفع عربة الجهد السياسي، والدبلوماسي، الفلسطيني نحو سكة واحدة، وحيدة، هي المفاوضات المباشرة مع اسرائيل. كيف يمكن لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي تواجه صخرة الرفض الاميركي ـ الاسرائيلي (بل والعربي في غالبية التعداد) ان تسبح وحيدة في محيطات العالم، وأن تتخلى، بارادتها، عن تأييد الاصدقاء ودعمهم، لا لشيء، الا لأن جريس رأى ان أحوال الاتحاد السوفياتي أسوأ من أحوال منظمة التحرير الفلسطينية. ويبدو ان الكاتب في وادٍ آخر، اذ هو حين يريد ان يعلن موقفه من الاتحاد السوفياتي يفعل ذلك بعد مداورة طويلة يوزع فيها الاتهامات بالارهاب الفكري على الآخرين الذين هم، دائماً، مستيسرون: «وعادة اذا شئت قول ما قد لا يعجب المستيسرين عن الاتحاد السوفياتي انقضوا عليك لمنعك من الاستمرار في تلك ' الهرطقة ' أو لمنعك من الكلام اطلاقاً. وقبل ان يقوموا بذلك هذه المرة أيضاً ويحاولوا منعنا من الكلام سوف نحاول قول ما لدينا» (ص ٢٠). والقارىء يدهش اذ يقرأ هذه الكلمات. فالكاتب يتخيل (أو هو بالاصح يريدنا ان نتخيل) حراساً وهميين يقمعونه كل مرة ويمنعونه من قول آرائه علماً بأن القاصي والداني يعرفان ان جريس كتب دائماً ما يريد؛ بل المدهش حقاً أن «المستيسرين» الذين يخافهم جريس ويدعونا الى استنكار ارهابهم، هم، بالضبط، من عجزوا عن نشر آرائهم في الرد على أفكار جريس، وليس العكس. ولماذا نذهب بعيداً. ان موضوعة جريس الاساسية بخصوص الموقف السوفياتي من منطقة الشرق الاوسط (نظرية يالطا) قيلت، وبالافواه الملآنة، ليس على صفحات الجرائد فقط، بل وفي المجالس الوطنية الفلسطينية المتعاقبة. أما وان هذه المجالس لم تأخذ بها، فهذا، في تقديرنا، ليس ذنب «المستيسرين» بل هو (ودون ان يغضب جريس) تعبير عن موقف جماعي فلسطيني يؤمن بصحة التحالف مع الصديق الدولي الكبير للشعب الفلسطيني وقائدة نضاله منظمة التحرير الفلسطينية. أما القول بأن الدور السوفياتي (حسب نظرية يالطا السابقة) «ثانوي وغير حاسم، ولن يسمح له غربياً» فهو قول يدعونا نحن الى السؤال: لماذا هذا الايمان الراسخ بالقدرة الاميركية التي تفرض ما تشاء، وتقرر ما هو مسموح وما هو غير مسموح ؟ وإذا كانت الامور على هذا النحو ـ كما يقول الكاتب ـ الا يحق لنا أن نفهم ان المطلوب هو الايمان بأن مفاتيح الحل هي في يد اميركا. ليس هذا فحسب، بل ان السوفيات لا يستطيعون حضور هذا المؤتمر الدولي إلا اذا حصلوا على «تأشيرة اسرائيلية ينبغي ان تكون أيضاً مدفوعة الرسوم. واسرائيل تعلن صراحة وعلى الملأ، انها لن تحضر أي مؤتمر دولي مع السوفيات إلا إذا وافقوا على اعادة العلاقات الدبلوماسية معها، وكذلك، وهذا هو الاخطر، سمحوا باستئناف هجرة اليهود السوفيات اليها» (ص ٢١). أما نحن الفلسطينيين، منظمة تحرير وقيادة، فان جريس يرى، متيقناً منذ الآن، أننا سوف ندفع الاتحاد السوفياتي الى الموافقة على شروط اسرائيل. وكتب في هذا الصدد: «واستطراداً يمكن الافتراض، أيضاً، انه عند ارتفاع حرارة الاعداد لعقد ذلك المؤتمر الميمون لن يتردد الفلسطينيون في الايعاز لحلفائهم السوفيات، ولو همساً، أو سكوتاً، بالاستجابة لبعض الطلبات الاسرائيلية، لكي يسهل ذلك عقد المؤتمر/ المهم. وتكون النتيجة ان تحصل اسرائيل على ما تبغيه لقاء تكرمها بالموافقة على حضور المؤتمر الذي قد لا يسفر عن نتيجة تذكر» (ص ٢٠).

سيناريو كامل يرسمه جريس لما سوف يحدث. واللافت، في هذا السيناريو، ان خطوطه، وأبعاده، ومسارات حركة القوى فيه، محكومة، تماماً، بموازين القوى الراهنة، وبالادق مشدودة بأمراس غليظة للارادة الاميركية ـ الاسرائيلية المطلقة وغير المرشحة، أبداً، لأي تغير او تحول. أية قدرية اوضح من هذا؟ أي ايمان أكثر من هذا يقول بأن رغبات الاعداء هي أحكام نافذة لا محالة ؟ ان الانطلاق من قدرية الاعداء لا يفضي الا الى ممر واحد، وحيد، الا وهو ضرورة التكيف مع هذا الراهن الاميركي والتعاطي معه، وهو أبعد ما يكون عن رفضه والدعوة الى تغييره، ما دام هذا التغيير غير وارد ولا ممكن، كما قدم الكاتب.

على ان الكاتب لا يكتفي بذلك، بل واستطراداً في تأكيد نهائية احكامه ووجهات نظره، يعمد، في الفقرة اللاحقة، الى القول: «وعلى سبيل التذكير، أيضاً، نشير الى ان الاتحاد السوفياتي كان سمح في مطلع السبعينات بهجرة سرية للآلاف من اليهود السوفيات (وليس الى اميركا مثلاً) الذين كانوا يشحنون اليها من طريق